

شكوى الطيور المحبوسة

في الأقفاص المنحوسة

رسَالة في بيَانِ أنَّ حبَسَ الطيُورِ في الأقفاصِ ظُلْمٌ وسَفَه

كتبها الشيخ

عبد الكريم بن صالح الحميد

حفظه الله تعالى

فهرس محتوى الرِّسَالة

الطبعة الأولى

شهرُ مُحرَّم / ١٤٢٨هـ

ساهم بنشر هذه الرسالة بين مَن تعرفه مِمَّن يُعَذِّبُونَ الطيور بحبسها في الأقفاص وبيعها ووضعها في المنازل للزينة

بسم الله الرحمن الرحيم

شكوى الطيور الْمَحبوسة في الأقفاص الْمَنحوسة

مُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين ، وصَلَّى الله وسَلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصَحْبِهِ أجمعين .. أمَّا بَعد :

فَقَدْ عَلِمْتُ أنه كَثُر في وقتنا اقتناءُ بعضِ أصنافِ الطيور ، خاصة ذوات الألوانِ الزاهية والأصوات الحسَنَة حتى إنه صَارَ لَها مَواضع خاصة يُتَاجر بهَا ، وأنها تُسْتجلب مِنْ بُلدانٍ بعيدة لغرض إمتاعِ النَّظَرِ والسَّمْعِ ، فتُحْبَسُ في أقفاصٍ في البيوتِ ومَحَلاَّتِ البيع ، وكأنَّهَا جَمَادَاتٌ لا إحساس لَهَا ولا شُعور ! .

وكَعَادَة بعضِ أهلِ وَقْتِنَا إذا أرادوُا فِعْلَ شَيْءٍ ممَّا أُحْدِثَ ولَمْ يَكُن له مثيلٌ سابق فإنهم يَستفتون ، وليس الشأنُ أنْ يَسْتفْتُوا فيُفْتوا لأنَّ هذا كثُر جِداً وكثر أهله لإضْفاءِ الشَّرعية على كلِّ شيءٍ ، وإنما الشأن هل هذه الفتوى حقٌّ أمْ لاَ ؟! .

فالذين يُفْتون ويُسَوِّغون حبسَ الطيور ونحوها يَسْتدلون بأدلة يغصبونها لِمُجَارَات مَا أُحْدِثَ في وقتنا مثل استدلالهم بِحَديثِ المرأةِ التي حَبَسَتْ هرَّة [1] ، وأنَّ العلَّة أنَّ المرأةَ لَمْ تُطْعِم الْهِرَّةَ و لم تَسْقِها ، وهو واللهِ مُخيفٌ وكافٍ في الرَّدعِ والزجر عن ظُلْمِ هذه الْمَخلُوقَات .

والذي في هذا الحديثِ الشريفِ خَبَرٌ من النبي ﷺ بِحَادثةٍ حَاصِلَة ، وفي ضِمْنه التحذير أنْ يفعل أحدٌ مثل هَذا الفِعْل .

(١) حيث أخرج البخاري في « صحيحه » برقم (٣٢٩٥) ، ومسلم في « صحيحه » برقم (٢٢٤٢) عن عبد الله بن عمر { أن النبي ﷺ قال : (عُذِّبت امرأة في هرة سَجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) ؛ وفي رواية أخرى عند مسلم برقم (٢٦١٩) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (دَخَلَت امرأة النارَ في هِرَّة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً) .

وإنه لتحذيرٌ هَائلٌ عظيمٌ ! ، فهذه المرأة - التي حبَسَت الْهِرَّة - مُسْلمة ، وإنَّمَا صَارَ سببُ دخُولِهَا النار هَذا الأمْرُ (١) ! ، ومَنْ ذا يُطيق عذابَ النَّار ؟! .

والعجَبُ أنْ يُسْتَدل بذلك على تسويغِ وتهوينِ حبس الطيور في الأقفاصِ الذي كَثُر وانتَشَر ! .

وأكثرُ مَا يَفعله الْمُتْرَفُونَ الذين لَمْ يَذكرهم الله ﷻ في كتابه الكريم إلاَّ بالذَّمِّ ويُحَذِّر الناسَ أنْ يَسْلكوا مسالِكَهُم .

ولَيس في هذا الحديثِ مُسْتَمسكٌ لِهَؤلاء ، ولكنه خَبَرٌ خَرَجَ مَخْرَجَ التحذيرِ مِن التعرُّضِ لِلظُّلْم ولِمَا يُوصِلُ إلَى العذابِ الأليم .

ومعناه أنَّ الْمَرْأةَ أساءَتْ إلى هرَّة وَظَلَمَتْهَا بحَبْسِهَا ، وزادَتْ في شَرِّها وعدوانها أنها لَمْ تُطْعِمْهَا وتَسْقِهَا ، فاستدلالُهُم باعتبارِ أنها لَوْ أطعمتها وسَقَتْهَا فليس في ذلك شيءٌ ؛ وهذا غَلَطٌ ظاهر ، فالْمَنْهِيُّ عنه هو الظلم حتى لِهَذه المخلوقات الْمُحْتَقَرَة ، وهذا خلاف الصائل فإنه يُقتل سواء القطَط أو غيرها ولاَ يُعذَّب ، وعندَ أهلِ العِلْمِ قَاعِدَة شَرعية تُبَيِّنُ ذلك وهي : (مَا آذَى طَبْعاً قُتل شَرْعاً) ، وليسَ هَذا هُوَ مَوضُوعنا .

فَقصَّةُ الْحَديث لاَ تصلُحُ إطلاقاً كَدَليلٍ يُسوِّغ ظُلْمَ المخلوقاتِ الْحَيَّة ، بَلْ قصَّته أعظم رَادِعٍ وزَاجِرٍ ومُحَذِّرٍ من الظُّلْم ؛ وَمِنْ ظُلم المخلوقَاتِ مَا يفعله البعضُ مِنْ حَبسِ الطيورِ في الأقْفَاص .

وإذا كانت العِلَّة على رأيِ المسَوِّغين حبسَ الطيوُرِ أنَّ المرأةَ لَمْ تُطعِم الْهِرَّة ولَمْ تَسْقِهَا ، فهل إذا حُبسَ إنسانٌ ظُلْماً وأُطْعِمَ وَسُقِيَ يكون ذلك غَير ظُلْمٍ له ؟! ، بل هو ظُلْمٌ ؛ وإنَّمَا مَنْعُهُ الطعام والشَّرَاب زيادةً في الظلمِ والعُدْوَان .

فإنْ قيل : (هذا صَحيحٌ بالنسبة للإنسَان ، ولكنَّ هذه الطيوُر ونحوها ليسَتْ كَالإنسَان) ، فيقال : حَبْسُهَا ظُلْمٌ لَهَا لأنها لَمْ تُخلَقْ ليُضيَّق عَلَيهَا ، ولاَ رَيْبَ أنها تتألم بذلك الحبس ، وغايةُ ما هناكَ أننا لاَ نَفْقَهُ لُغَاتها ، وَلاشْتِرَاك الناسِ في العلمِ أنَّ حبسَ الطائرِ في القَفَصِ عَذابٌ له فَهُمْ يقولون : " المؤمنُ عندَ الذِّكْرِ والموعِظَةِ كَالسَّمَك فِي الْماءِ ، والفَاسِقِ كالطائرِ في القَفَصِ " ! .

وما يُدْري حَابسها أنَّ أصواتَهَا التي يَتلذَّذُ بسماعها حنينٌ وَبَثٌّ شكوى لِخَالقهَا ! ، ولقد وسَّع الله لَهَا الفَضَاء وأعطاهَا أجْنحَةً تَطِيرُ بهَا فِيه كَمَا أعطَاكَ قَدَمَيْن تَسِيرُ بِهِمَا عَلَى الأرْضِ وَأنتَ من أجلِ هَوَاك

(١) وليس هذا دخول خلود ، ولكنه هائل ولو كان لَمحَة بَصَر ! .

تضيِّقُ عَليهَا وَتَظنُّ أنَّهَا تُغَنِّي لِكَيْ تُطْرِبك ! ؛ فالقياسُ إذَنْ على حديثِ المرأةِ والْهِرَّة فاسدٌ مِنْ الأصلِ ، ولكن كثيرون في وقتنا زادوا على ما قاله الإمام أحمد ~ : (أَكْثَرُ مَا يُخْطِيءُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأويلِ وَالقِيَاسِ) (١) ، فيُؤَوِّلُون وَيَقِيسُون دونَ تَحقيقٍ ! ، فهُم يَلتمِسُون مِنْ الشريعةِ على مَا أحدثوا مَا لاَ يُطاوِعهم إلاَّ قَسْراً وَغَصْباً ! .

وبالعكْسِ فالحديثُ زاجرٌ ورادعٌ لِمَنْ يَعْقِل أنْ يقترب مِن مِثْلِ هَذا الفعْل .

فلَوْ قَالَ : (أنَا أحْبِسُ الطُّيُورَ وأُطْعِمُهَا وأسْقيهَا) فقَد تبينَ أنَّ العِلَّةَ ليسَتْ فَقَطْ في عَدَمِ ذلك ، وإنَّمَا هي في الظُّلْم أيضاً ، وإذا كانَ هذا الوعيد الْمُتَحَقِّق فِي شأنِ هرَّةٍ فكيف بِمَن يَظلمُ الناس ؟! .

وَيُقَال أيضاً لهذا : أنتَ تَنشَغِل وَتنسى وَيَعْرِضُ لك مَا يَعرض مِمَّا يَشغلك عن تعاهدها ، ولاَ مَصلحة بِجَانِبِ هذه الْمَفْسَدَةِ وقد حصل مِنْ مَوْتِ الطيورِ ونَحوها لِهَذِهِ الأسبابِ الكثيرُ ، ومَن شاء فليسأل أربابَهَا ! .

فالمفسدةُ كبيرةٌ بِالْحَبْسِ وَحْدَه مُقَابِل لاَ مَصْلَحَة لأنه إذا كان التسلِّي بإيلاَمِ هَذه الْمَخلوقات مَصلحةٌ فهذه لاَشَكَّ أمْزِجَةٌ مُنحَرِفَةٌ ؛ والْمُؤْمنُ مُطَالَبٌ بالرَّحمة والإحْسَان وَمَنْهِيٌّ عنْ التَّجَبُّر وَالظُّلْم ، وَعَلَى العَاقِلِ أنْ يُفَكِّر فِي شَأن حَابِسَةِ الْهِرَّة وَسَاقِية الكَلْبِ (٢) ؛ فَالبَغْيُّ غُفرَ لَهَا بِسَقْي كَلْبٍ ، وَصَاحِبَةُ الْهِرَّة دَخَلَت النَّارَ بِحَبْسِهَا وَظُلْمِهَا ! .

وبَعضُ الناسِ قد يكونُ غَافِلاً عَنْ ذلك فَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ .

*** *** ***

---

(١) أنظر : « مجموع الفتاوى » ، (١٩ / ٧٥) و (٧ / ١١٨) .

(٢) تقدم ذكر حديث حابسة الهرة ، وأما البغي التي غفر لها بسقيها كلب فقد أخرج البخاري في « صحيحه » برقم (٣٢٨٠) ومسلم برقم (٢٢٤٥) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بَغِي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به فسقته إياه ، فَغُفِر لَهَا به) .

وقد أخرج البخاري في « صحيحه » برقم (٢٢٣٤) ومسلم برقم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رَجُل يَمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : " لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني " ، فَنَزَل البئرَ فملأ خُفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشَكَرَ الله له فَغَفَر له) ، قالوا : يا رسول الله .. وإنَّ لنا في هذه البهائم لأجراً ؟! ؛ فقال ﷺ : (في كل كَبِدٍ رَطْبة أجْر) .

ويستدلُّ بعضُ مَن يُهَوِّنُ حَبسَ هذه الطيورِ بمَا وَرَدَ في شَأنِ الزِّينَة مِثْلَ قوله تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ الآية [١] .

والآيةُ مُنَاسَبَة نُزُولِهَا كما روى ابن عباس { حيث قال : (كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانَــةً فَتَقُولُ : مَنْ تُعِيرُنِي تِطْوَافًا ؟! ، فَتَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا وَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَــدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّــهُ

فَنَزَلَتْ : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّــهُ لا يُحِــبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [٢]) [٣] ؛ وفي رواية أخرى : (فَنَزَلَتْ : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِــي أَخْــرَجَ لِعِبَــادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ الآية) [٤] .

وقد رأيتُ مِنْ تَحْمِيلِ الْمُتأخِّرين لِهَذِه الآيةِ عَجَبًا حيثُ يَستَدِلُّونَ بهَا على مَا فُتِح عليهم من التشبُّه بالكُفَّارِ وغيره ولاَ يُرِيدُونَ أنْ يَعترض طريقَهُم أحَدٌ ! ، وانظُرْ كيفَ يُستَدَلُّون الآنَ بالآيةِ على عَذاب مَخْلُوقَاتِ الله ! .

كذلك يستدلُّونَ في شَأنِ الزِّينَة بقول الله تعالى : ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ الآية [٥] ، وهذا تَحْمِيلٌ لِهَذِه الآيَة مَا لاَ تَحْتَمِل ! ، والزينة إذا كان فيها ضررٌ لِمَخْلُــوُقٍ فهي ظُلْم ، وقد تَبَيَّنَ الضَّرَرُ بِحَبسِ الطيورِ في الأَقْفَاصِ ، وأمَّا هذه الزينةُ التي ذَكَرَ الله ﷻ فَلَيْسَت علــى حِسَابِ التضييقِ على هَذِهِ الْمَخلوقات ، وزينةُ الطيورِ بألوَانِهَا وأصْوَاتِهَا ليسَتْ لِتُعَذَّب بِهَا بِالْحَبسِ ! .

كذلك كونُ الإنسانِ يُحِبُّ أن يكون ثوبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَناً ، فهذه لاَ مَفْسَدَة فيها ، ولذلك يقول النبي ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ) [٦] ، فالْجَمَالُ الذي يُحِبُّه الله مَا ليس فيه إِسْرَافٌ ولاَ مَخْيَلَــةٌ وَلاَ ضَرَر فيه عَلَى مَخْلُوقٍ .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ٣٢ .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٣١ .

(٣) أخرجه مسلم في « صحيحه » برقم (٣٠٢٨) .

(٤) أخرجه الحاكم في « مستدركه » برقم (٣٢٤٦) ، وقال : (حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه) ووافقه الذهبي .

(٥) سورة النحل ، من الآية : ٨ .

(٦) أخرجه مسلم في « صحيحه » برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وَزِينَةُ الْحَيَاة الدُّنيا مَذْمُومَةٌ ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (١) ، وفاعلُ التَّزْيينِ في قَولِه تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ** ﴾ مَحذُوفٌ وهُوَ الشَّيطَان ، وما زيَّن لَهُمْ تلكَ الشَّهَوات إلاَّ ليغْتَرُّوا بهَا ويُسْتَدرَجُوا بزِينَتِهَا ؛ وتأمَّلْ آخرَ الآية : ﴿ **وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ وقوله سبحانه بعد ذلك : ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ (٢) .

فالاستدلالُ بِمَا وَرَدَ مِنْ شَأنِ الزِّينَة عَلى جوازِ حَبْسِ الطُّيورِ استدلالٌ باطِلٌ لأنَّ الضَّابطَ لذلك عَدَمُ الإضرارِ بالغَيْرِ ، وليس عدمُ الإضرارِ فَقَط مَحْصُورٌ في مَنْعِ الأكل والشرب ، بل نفْس الحبس إضرار ؛ وقد تبيَّن .

ومن العجَب أن يأتي مَن يسوِّغ حبس الطيور في الأقفاص بقصد الزينة مُستدلاً بِمَا رواه مكحول عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب ، فخرج يريدهم وفي الدار رَكْوَةٌ فيها مَاء فَجَعَلَ ينظُرُ في الْمَاءِ وَيُسَوِّي شَعْرَه وَلِحْيَتَهُ فقلتُ : يا رسول الله وأنت تفعل هذا ؟! ، قال : (إِذَا خَرَجَ أَحَدُكُمْ إِلَى إِخْوَانِه فَلْيُهَيِّءْ مِنْ نَفْسِه فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ) انتهى (٣) ، فأيُّ مَضَرَّة في هذا ؟! ، وهل فيه مَا يُجيزُ حَبسَ الطيور للزينة وقد تبيَّن أنَّهُ مُضرٌّ بهَا وظُلْمٌ لَهَا ؟! .

*** *** ***

كذلك يَستدلُّ الْمُجيزُون لِحَبْسِ الطيور بقول النبي ﷺ لأخِ أنس بن مالك رضي الله عنه : (يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ ؟!) (٤) ، وهذا ليس فيه ما يُسَوِّغ حَبْسَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَات .

والحديثُ وَرَدَ لِبَيَان كَمَالِ حُسْنِ خُلُقِه ﷺ ، وَيُوَضِّحُه قَوْلُ أنسٍ رضي الله عنه : (كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً) ، فهو ﷺ يُخَاطِبُ الطِّفْلَ عَلى قَدْرِ فَهْمِهِ ، ولأنَّ الصبيانَ تتعلَّق قُلُوبُهُم بِلُعَبِهِم فَمِنْ هَنا يُلاَطفه ﷺ .

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٤ .

(٢) سورة آل عمران ، آية : ١٥ .

(٣) أنظر : « تفسير القرطبي » ، (٧ / ١٩٧) .

(٤) وقد جاء ذلك في حديثٍ أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم (٥٧٧٨) واللفظ له ، ومسلم برقم (٢١٥٠) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ، وكان لي أخ يقال له أبو عمير ، قال : أحسبه فطيم ، وكان إذا جاء قال ﷺ : " يا أبا عمير ما فعل النغير ؟! " نُغَر كان يلعب به ، فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا) .

وليسَ في ذلك إضرارٌ بالنغير لاسيِّما وأنه لَمْ يُحبس في قَفَصٍ ، وَمِثْلُ هذا الأمرِ جَارٍ في زَمَانِنَا وقبْله ، فكوْنُ صَبِيٍّ مَعَهُ طائر يَلهو به ويلعب قليلاً بيده أو حتى في قفصٍ سَاعةً أو بعض يوم ثم يُذبح ليؤكل أوْ يُطْلَق أو حتى يَمُوت مِنْ غيرِ حَبْسٍ أو مَنْعِ أكلٍ أو شُرْبٍ ، فهذا غير داخلٍ في مَوضُوعِنَا .

وليسَ في ذلك ما يفتح الأبوابَ للناسِ حتى يكون ذلك تجارةً في كلِّ بَلَد ، وَمِنْ أجْلِ ذلك تُستَوْرَدُ الطيورُ مِنْ بُلدانٍ بعيدةٍ قد لاَ يُناسِبُهَا جَوُّ البلاد التي جُلِبَتْ إليها فيزيدُها ذلك أَلَماً .

*** *** ***

أمَّا أنْ يُهوِّن بعضُ الناس حبسَ هذه المخلوقاتِ بِشُروط وهي : (ألاَّ يُرَادُ بذلك الْخُيَلاَء والتَّفَاخُر ، وألاَّ يُلهي التمتُّع بهَا عَنْ واجبٍ ، وألاَّ تُهْمَل رِعَايَتُهَا في الغذَاء والشَّرَاب) فإنه يُقال : من السَّهل أنْ يقول الإنسان : " كُل هذا لن يكون " ، فَعَلَى تَقْدِيرِ ذلك وهو مُحَالٌ ، فيقالُ : قَدْ تَبيَّنَ أنَّ مُجَرَّدَ حَبْسها يضرها ، وَلِمَاذا يُغْفَلُ عن الأصْلِ ويصير الكلامُ في الفرُوعِ ؟! .

لقد خلق الله لِهَذِهِ الطُّيُورِ ذَوات الأجْنِحَة فضَاءً وَاسعاً فَحَرَمْتها إيَّاهَ بحَبْسكَ لَهَا في أقْفَاص ! .

وكيف لا تُرحَمُ هذه الطيورُ الضَّعيفَةُ التي أعطاها الله أجنحةً وَفَضَاءً وَاسعاً هو مَجَالُ طَيَرَانِهَا مَع أنَّ الإنسانَ لو حُبِس قليلاً في غُرفَةٍ واسعَة مُغْلَق عليه بابُهَا لَتَضَجَّرَ ! ، فَمَا بَالُ هذا الطائر الأسير الضعيف عديم الْحَوْلِ والقُوَّة يُحْبَسُ ؟! ، هلْ لأَنَّه لا يُخاصِمُ عَنْ نفْسه وَلاَ يَمْتَنِع بقُوَّته ؟! ، أمْ لأَننا لاَ نَفْقَهُ لُغَتَهُ فَنَسْمَع أنِينَه وحنينَه وَشكواه ؟! ، وَكم مِنْ طائرٍ مَحْبوسٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ حَابِسِهِ وأكْثَرُ ذِكْرٍ للَّه مِنْهُ ! .

وتأمَّلْ قولَ الله تَعالى : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [١] ، قال قتادة ~ على هذه الآية : (الطَّيْرُ أُمَّةٌ ، وَالإِنْسُ أُمَّةٌ ، وَالْجِنُّ أُمَّةٌ) [٢] ، وقالَ ابنُ عَباس { في قوله سبحانه : ﴿ **إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ** ﴾ : (يُرِيدُ : يَعْرِفُونَنِي ، وَيُوَحِّدُونَنِي ، وَيُسَبِّحُونَنِي ، وَيَحْمَدُونَنِي) انتهى [٣] ؛ وقال الرَّازي ~ بعد أنْ أوْرد قول ابن عباس { : (وَإِلَى هَذَا الْقَوْلِ ذَهَبَ طَائِفَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَقالوُا : " إنَّ هَذه الْحَيَوَانَات تَعْرِفُ اللَّهَ ، وَتَحْمَدُهُ ، وَتُوَحِّدُهُ ، وَتُسَبِّحهُ " ، وَاحْتَجُّوا عَلَيْه بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ**

(١) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .
(٢) « تفسير ابن جرير الطبري » ، (٧ / ١٨٧ - ١٨٨) .
(٣) أنظر : « التفسير الكبير » للرازي ، (١٢ / ١٧٦) .

بحَمْده وَلَكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [١] ، وبِقَوْله في صفَة الْحَيَوَانَات : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّات كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [٢] ، وبِمَا أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ خِطَابَ النَّمْلَ وخِطَابَ الْهُدْهُدَ ؛ وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَا في تَقْرِيرِ هَـذَا القَوْلِ وَتَحْقِيقِه فِي هَذِه الآيَات) انتهى [٣] .

ولذلك ذَكَرَ الله عن سُلَيْمَانَ # أنه قَالَ : ﴿ **عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ [٤] ، فَقَدْ عَلَّمَ الله نَبِيَّهُ سُـلَيْمَانَ مَنْطِقَهَا ، فَهُوَ يَتكلَّم مَعَهَا بحيثُ تَفْقَهُ كَلاَمَهُ وَيفْقَهُ كلامها ، وهَذَا الْهُدْهُدُ قَصَّ الله عَلَيْنَا قِصَّتَهُ مَع نَبِيِّـه سُلَيْمَانَ # فِي كتابه العزيز مِمَّا يُبيِّنُ مَعَانِي الآياتِ السَّابِقَةِ وَمعرِفَةَ هَذه الْمَخلوُقَاتِ لِخَالقِهَا وتوْحِيـدَهَا إِيَّاهُ ﷻ وَتَعْظِيمَهَا لَه سُبْحَانَه .

وَقَدْ قالَ ابنُ القَيِّمِ ~ في قِصَّة « الْهُدْهُد » : (وَهَذَا الْهُدْهُدُ مِنْ أَهْدَى الْحَيَوَان وَأَبْصَرِه بمَوَاضِـعَ الْمَاءِ تَحْتَ الأَرْضِ لاَ يَرَاهُ غَيْرَهُ ؛ وَمِنْ هِدَايَتِهِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِه أَنْ قَالَ لِنَبيِّ اللَّه سُلَيْمَانَ وَقَـدْ فَقَدَهُ وَتَوَعَّدَهُ فَلَمَّا جَاءَهُ بَدرَهُ بالعُذْرِ قَبْلَ أَنْ يُنْذرهُ سُلَيْمَانُ بالعُقُوبة ، وَخَاطَبَهُ خِطَاباً هَيَّجَهُ به عَلَى الإِصْغَاءِ إِلَيْه وَالقَبُول منْهُ فقَالَ : ﴿ **أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحطْ بِه** ﴾ [٥] ، وَفِي ضِمْنِ هَذَا أَنِّي أَتَيْتُكَ بأَمْرٍ قَدْ عَرَفْتُهُ حَقَّ الْمَعْرِفَة بحَيْثُ أَحَطْتُّ به ، وَهُوَ خَبْرٌ عَظِيمٌ لَهُ شَـأْنٌ فَلذَلكَ قَالَ : ﴿ **وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ** ﴾ [٦] ، والنَّبَأُ هُوَ الْخَبْرُ الَّذي لَهُ شَأنٌ وَالنُّفُوسُ مُتَطَلِّعَةٌ إِلَى مَعْرِفَته ، ثُمَّ وَصَفَهُ بأَنَّهُ نَبَأٌ يقينٌ لاَ شَكَّ فيه وَلاَ رَيْبَ ؛ فَهَذه مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيْ إِخْبَارِه لِنَبيِّ اللَّه بذَلكَ النَّبَأ اسْتَفْرَغَتْ قَلْبَ الْمُخْبَرِ لتَلَقِّي الْخَبَرِ ، وَأَوْجَبَـتْ لَـهُ التَّشَوُّفُ التَّامُّ إِلَى سَمَاعه وَمَعْرِفَته ؛ وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ بَرَاعَة الاسْتهْلاَل وَخِطَابِ التَّهْيِيج ، ثُمَّ كَـشَفَ عَـنْ حَقِيقَة الْخَبَرِ كَشْفاً مُؤَكَّداً بأدلَّة التَّأْكِيد فَقَالَ : ﴿ **إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلكُهُمْ** ﴾ [٧] ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَأن تِلْكَ الْمَلكَة وَأَنَّهَا مِنْ أَجَلِّ الْمُلُوك بحَيْثُ أُوُتيَت مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَصْلُحُ أَنْ تُؤْتَاهُ الْمُلوُكُ ، ثُمَّ زَادَ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِهَا بِذِكْرِ عَرْشِهَا الَّذي تَجْلسُ عَلَيْه وَأَنَّهُ عَرْشٌ عَظيمٌ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ بما يَدْعُوهُ إِلَى قَصْدِهِمْ وَغَزْوِهِمْ فِـي

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤ .

(٢) سورة النور ، آية : ٤١ .

(٣) « تفسير الرازي » ، (١٢ / ١٧٦) .

(٤) سورة النمل ، من الآية : ١٦ .

(٥) سورة النمل ، من الآية : ٢٢ .

(٦) سورة النمل ، من الآية : ٢٢ .

(٧) سورة النمل ، من الآية : ٢٣ .

عَقْرِ دَارِهِمْ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ فَقَالَ : ﴿ **وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ** ﴾ [(١)]) وذَكَر ابنُ القيِّمِ ~ كلاماً ثُم قال : (ثُمَّ أخبَرَ - أيْ الْهُدْهُدُ - عَنْ الْمُغْوِي لَهُمْ الْحَامِلِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ تَزْيِين الشَّيْطَانُ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ حَتَّى صَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ السُّجُودُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، ثُمَّ أخبَرَ أنَّ ذَلكَ الصَّدَّ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْهِدَايَةِ وَالسُّجُودِ لِلَّهِ الَّذي لاَ يَنْبَغِي السُّجُودُ إِلاَّ لَهُ) إلى آخرِ كلامه ~ [(٢)] .

وقال النسفي ~ : (وَلاَ يَبعُدُ مِنْ الْهُدْهُد التَّهَدِّي إِلَى مَعْرِفَة اللَّه تَعَالَى وَوَجُوب السُّجُود لَهُ وَحُرْمَة السُّجُود لِلشَّمْسِ إِلْهَاماً مِنْ اللَّه لَهُ كَمَا أَلْهَمَهُ وَغَيْرَهُ مِنْ الطُّيُور وَسَائِرِ الْحَيَوان الْمَعَارِفَ اللَّطِيفَة الَّتِي لاَ يَكَادُ العُقَلاَءُ الرِّجَاحُ العُقُول يَهْتَدُونَ لَهَا) انتهى [(٣)] .

فهَذَا الْهُدْهُدُ طَائِرٌ من الطيور الْمُحْتَقَرَة الغيرِ مَرغُوبٍ فيها عندَ الناسِ ، وَهَذه مَعرفته لتَوْحيد خَالقه سُبحانه حتى بَلغَ شَأنه أنْ ذَكرَ اللَّهُ حِكَايَتَهُ في كِتَابه الكريمِ وَإنكارَه للشِّرْك وَتَعَجُّبَهُ مِنْ أنْ يَعبد الإنسانُ غيرَ مَعبودِه الْحَقِّ سُبحَانه ! ، وَبلَغ مِنْ شَأنه هذا الْمَقَام مَع نَبيِّ الله ! ، وقد قال القرطبي في قول الْهُدْهُد : ﴿ **فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ : (أَيْ عَنْ طَرِيقِ التَّوْحِيد وَبَيَّنَ بِهَذَا أنَّ مَا لَيْسَ بِسَبِيلِ التَّوْحِيد فَلَيْسَ بِسَبِيلٍ يُنْتَفَعُ بِه عَلَى التَّحْقِيق) انتهى [(٤)] ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ أهلِ هذه الدَّعْوَة الْمُبَارَكَة - دَعْوَة الشيخ مُحَمَّد بْن عَبْدِ الوَهَّابِ - رَحِمَهُم الله أجْمَعِين : (يَا لَيْتَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ يَعْرِفُ مِنْ التَّوْحِيدِ مَا عَرَفَ الْهُدْهُدُ !) .

وقال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ [(٥)] .

قال ابنُ القيِّمِ ~ عن هَذِه الآيَةِ : (الآيَةُ شَامِلَةٌ لِهِدَايَةِ الْحَيَوَانِ كُلِّه نَاطقه وَبَهيمه ، طَيْرِه وَدَوَابِّه ، فَصِيحِه وَأَعْجَمِه) انتهى [(٦)] .

يُريدُ ابن القيِّم ~ الْهِدَايَةَ العامَّة ، وهَذه الآية مِثْل قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ [(٧)] .

---

(١) سورة النمل ، آية : ٢٤ .

(٢) من : « شفاء العليل » ، ص (١٠٦ - ١٠٧) .

(٣) « تفسير النسَفي » ، (٣ / ٢٠٩ - ٢١٠) .

(٤) « تفسير القرطبي » ، (١٣ / ١٨٥) .

(٥) سورة طه ، الآية : ٥٠ .

(٦) « شفاء العليل » ، ص (١٠٦ - ١٠٧) .

(٧) سورة الأعلى ، آية : ٣ .

وقد ذَكَر ~ في كِتَابه النَّفيسِ « شِفَاءِ العَلِيلِ » مِنْ عَجَائب مَا أَلْهَمَ اللَّهُ الْحَيَوَانَ وَالطَّيرَ وَالنَّحْلَ والنَّمْلَ لِمَعَايشِهَا مَا يُبَيِّنُ قُدْرَةَ القَدِيرِ وَعِلْمه وَلُطْفه وَحِكْمَته .

وقد تقدَّم مَا ذَكَرَ الله ﷻ مِنْ قَولِ نَبيِّه سُلَيْمَانَ # أنه قَالَ : ﴿ **عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ** ﴾ [(١)] ، فَهُوَ مَنْطِقٌ مُعَبِّرٌ لَكِنْ لاَ نَفْقَهُهُ ! .

قالَ ابنُ القيم ~ : (وَمَنْ عَلَّمَ العُصْفُورَةَ إِذَا سَقَطَ فَرْخُهَا أَنْ تَسْتَغيثَ فَلاَ يَبْقَى عُصْفُورٌ بجوَارِهَا حَتَّى يَجيءُ فَيَطِيرُونَ حَوْلَ الفَرْخِ وَيُحَرِّكُونَهُ بِأفْعَالِهِمْ ويُحْدِثُونَ لَهُ قُوَّةً وَهِمَّةً وَحَرَكَةً حَتَّى يَطِيرُ) [(٢)] .

*** *** ***

وقد تقدم بيان أنَّ الطُّيورَ أمَّة من الأمَمِ كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [(٣)] ، فأنتَ يا مَنْ تَحْبسُ طائراً في قفَصٍ تَتَمَتَّع بزعمِكَ بِصَوته وَشَكله الْحَسَن ، ورُبَّمَا أنه يَشكوكَ إلى رَبِّه وخالقه الـذي أعْطَاهُ جَنَاحَيْن يَطير بِهمَا فِي فَضَاء وأنتَ عَطَّلْتَ جَنَاحَيه بِحَبْسكَ إياه واستمتاعك بِصَوْته الْحَسَن وشَكْلَه الْجَميل ! ، فَهُوَ مثل الْمُعَوَّق الَّذي لاَ تَحْمله أقْدَامُهُ ، بَلْ يَزِيدُ عليه بِحَبْسه ! ؛ وَتَأمَّلْ إنْ كُنْتَ تَخَافُ الْحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَة قَوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ .

وقَدْ جَاءَ عن أبِي الدَّرداءِ ﷺ أنه قال : (تَجيءُ العَصَافِيرُ يَوْمَ القِيَامَة تَتَعَلَّقُ بِالْعَبْد الَّذي كَانَ يَحْبِسُهَا فِي القَفَصِ عَنْ طَلَبِ أرْزَاقِهَا وَتَقُولُ : " يَا رَبُّ هَذَا عَذَّبَنِي فِي الدُّنْيَا " !) انتهى [(٤)] .

وَلِذَلِكَ مَنَعَ ابنُ عَقيلٍ ~ حَبْسَ الطَّيْرِ فِي القَفَصِ وَجَعَلَهُ سَفَهًا وَتَعْذيباً حيثُ قال حينَمَا سُئِلَ عَنْ حَبْسِهَا لِطيب نَغْمَتِهَا : (سَفَهٌ وَبَطَرٌ ، يَكْفِينَا أَنْ نَقْدُمَ عَلَى ذَبْحِهَا لِلأَكْلِ فَحَسْبُ ، لأَنَّ الْهَوَاتِفَ مِنْ الْحَمَامِ رُبَّمَا هَتَفَتْ نِيَاحَةً عَلَى الطَّيَرَان وَذِكْرِ فِرَاخِهَا ! ، أَفَيَحْسُنُ بِعَاقِلٍ أَنْ يُعَذِّبَ حَيًّا لِيَتَرَنَّمَ فَيَلْتَذَّ بِنِيَاحَتِه ! ؛ فَقَدْ مَنَعَ مِنْ هَذَا أَصْحَابُنَا وَسَمَّوْهُ سَفَهًا) انتهى [(٥)] .

---

(١) سورة النمل ، من الآية : ١٦ .

(٢) « شفاء العليل » ، ص (١١٤) .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .

(٤) « حياة الحيوان الكبرى » للدميري ، (٢ / ٢١٣) .

(٥) أنظر : « بدائع الفوائد » (٣ / ٦٥٥) ، و « غذاء الألباب » (١ / ٣٤٩) .

وقال ~ - أيضاً - : (نَحْنُ نَكْرَهُ حَبْسَهُ لِلتَّرْبِيَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ السَّفَهِ ، لِأَنَّهُ يَطْرَبُ بِصَوْتِ حَيَوَانٍ صَوْتُهُ حُنَيْنٌ إِلَى الطَّيَرَانِ وَتَأَسُّفٌ عَلَى التَّخَلِّي فِي الْفَضَاءِ) انتهى [1] .

وقال ابنُ مُفْلِحٍ ~ : (فَأَمَّا حَبْسُ الْمُتَرَنِّمَاتِ مِنْ الْأَطْيَارِ كَالْقَمَارِيِّ وَالْبَلَابِلِ لِتَرَنُّمِهَا فِي الْأَقْفَاصِ فَقَدْ كَرِهَهُ أَصْحَابُنَا لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الْحَاجَاتِ إلَيْهِ ، لَكِنَّهُ مِنْ الْبَطَرِ وَالْأَشَرِ وَرَقِيقِ الْعَيْشِ ، وَحَبْسُهَا تَعْذِيبٌ) انتهى [2] .

وفي كَلَامِ ابنِ عَقِيل وابن مُفلحٌ وغيرهم ممَّا ذكرناه هنا ردٌّ على مَن أجازَ حَبْسَ الطُّيُورِ في الأقفاص إذا كان حَابِسُها يقوم بتوفيرِ أَكْلِهَا وَشُرْبِهَا ؛ وقد تبيَّن مرَاراً أنَّ العلَّةُ في عدم جواز حـبْسِ الطيور في الأقْفَاص ليسَتْ فَقَطْ بِمَنْعِها الْمَأكَل والْمَشْرَب وَإِنَّمَا الْحَبْسُ لِأنه ظُلْمٌ وعَذَابٌ .

*** *** ***

وَعَلَيه فَتَأمَّل رَحمةَ النبيِّ ﷺ بمِثْل هَذه الطيوُر ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيث الصَّحِيح عَنْ عَبْد الله بن مَسْعُود ﵁ أَنَّهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَته ، فَرَأَيْنَا " حُمَّرَةً " [3] مَعَهَا فَرْخَان ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا ، فَجَاءَتْ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ [4] ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : (مَنْ فَجَعَ هَذِه بِوَلَدِهَا ؟! ، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا) [5] .

تأمَّلْ قولَه ﷺ : (**فَجَعَ**) تَعْلَمْ أنَّ هَذِه الطُّيور تَتَألَّمَ حَتى وَصَفَ ﷺ هَذه الْحُمَّرَة بأنَّهَا (مَفْجُوعَةٌ) ! ، وإذَا كَانَ الأمْرُ كَذَلكَ فَأَلاَ تُفْجَعُ بِحَبْسِهَا ؟! ، وَمَا مَصْلَحَةُ فَاجِعِهَا ؟! ، إنهُ التَّسَلِّي بِحُزْنِهَا وَنُوَاحِهَا ! ؛ فَلَعَلَّ مَن كَانَ غَافِلاً أنْ يَتَنَبَّهْ .

وَقَالَ الْحَافظُ الْمُحدِّثُ أبو نُعَيم ~ : حدَّثنا سُلَيمَان بنُ أحْمَدِ الطَّبَرَاني - وَهُوَ صَاحِبُ الْمَعَاجِمِ الْحَدِيثِيَّة الثَّلاَثَـةِ الْمَعْرُوفَـةِ - ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ عبدِ العَزِيـزِ ، حَدثنا عَـارِم أبو النُّعْمَـان قالَ : أَتَيْتُ « أبَا مَنْصُور » أَعُوْدُه فَقَال لِي : بَاتَ سُفْيَانُ الثَّـوْرِي ~ في هذا البيتِ وَكانَ هَهُنَا بُلْبلٌ لِابْنِي ؛ فَقَالَ :

(١) أنظر : « الفروع » لابن مفلح ، (٦ / ٢٠٨) و (١٢ / ٤٦٤) .
(٢) أنظر : « الآداب الشرعية الكبرى » (٤ / ٢٠) .
(٣) الْحُمَّرَة : طائر صغير كالعصفور . أنظر : « لسان العرب » لابن منظور (٤ / ٢١٥) .
(٤) أيْ : ترفرفت بجناحيها وتقرَّبت من الأرض . أنظر : « عون المعبود » للعظيم آبادي (٧ / ٢٤٠) .
(٥) أخرجه أبو داود في « سننه » برقم (٢٦٥٧) و (٥٢٦٨) ؛ وقال النووي في « رياض الصالحين » ص (٣٦٧) : (**إسناده صحيح**) .

(مَا بَالُ هَذَا الطَّيْرِ مَحْبُوسٌ ! ، لَوْ خُلِّيَ عَنْـــهُ ؟!) .

فقلتُ : هو لِابْنِي وَهُوَ يَهَبُهُ لَكَ .

قَالَ : فَقَالَ : (لاَ وَلَكِنِّي أُعْطِيهِ دِينَارًا) .

قال : فأخَذَه فَخَلَّى عنه فكَانَ يَذهَبُ فَيَرْعَى فَيَجِيءُ بالعَشِيِّ فيكُونُ فِي نَاحِيَةِ البَيْتِ .

فَلَمَّا مَاتَ سُفيانُ تَبِعَ جِنَازَتَهُ فَكَانَ يَضْطَرِب عَلى قَبْرِه ، ثُمَّ اخْتَلَفَ بعدَ ذلك لَيَالِي إِلَى قَبْرِه فكَـــانَ رُبَّمَا بَاتَ عَليهِ وَرُبَّمَا رَجَعَ إِلَى البيتِ ، ثُمَّ وَجَدُوهُ مَيِّتاً عند قَبْرِهِ فَدُفِنَ مَعَهُ فِي القبرِ أَوْ إِلَى جَنْبِهِ (١) .

فتأمل قول سفيان ~ : (**مَا بَالُ هَذَا الطَّيْرِ مَحْبُوسٌ ! ، لَوْ خُلِّيَ عَنْـــهُ ؟!**) ، فَلَمْ يذكُر الـــرِّزْقَ وإِنَّما ذَكَرَ الْحَبْسَ فَقَطْ لأنه عَذَابٌ ، ثُم إنه اشْتَرَاه وَأَطْلَقَهُ ! ، ثُمَّ حَصَلَ هَذَا الأمرُ العَجِيبِ الذي فَعَلَهُ هَذَا الطَّائِرُ ! .

وَمَا أحسَن كَلاَمَ السَّفارِينِي ~ فِي ذَلِكَ حَيثُ قَالَ : (لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ أَنَّ كَثْرَةَ تَرَنُّمِ الطُّيـــُورِ عَلَى تَذَكُّرِهَا إِلْفَهَا مِنْ الأَمَاكِنِ الشَّاسِعَـــةِ ، وَالأَغْذِيَةِ النَّاصِعَـــةِ ، وَالْقَرِينِ الْمُصَافِي ، وَالْمَـــاءِ الْعَـــذْبِ الصَّـــافِي ، وَالإِطْلَاقِ الرَّحِيبِ ، وَمُخَالَطَةِ الْحَبِيبِ ، مَعَ الْوَكْرِ الْمُشْتَهَى لَدَيْهَـــا ، وَالأَغْصَانِ وَالْعُكُوفِ عَلَيْهَا .

وَيُعْجِبُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا حُبِسَ فِي قَلْعَةِ " جلِّق " الْمَحْرُوسَةِ فَضَاقَ بِهِ الْخِنَاقُ ، وَبَلَغَتْ مِنْهُ الرُّوحُ التَّرَاقِ ، فَدَخَلَتُ عَلَيْـــهِ عِنْدَ الْمَحَابِيسِ - وَكَانَ فِي الْحَبْسِ اثْنَـــانِ مِنْ « الدَّيْرَة » - فَقَالَ لِي الأَعْرَابِيُّ :

" يَا سَيِّدِي : أَنَا أَقُولُ قَاتَلَ اللَّهُ حَابِسَ الطَّيْرِ فِي الأَقْفَاصِ ! ، فَإِنَّهُ لِشَجْوِهِ وَغُرْمِهِ يَتَرَنَّمُ وَالْحَابِسُ لَـــهُ بِشَجْوِهِ وَعَذَابِـــهِ وَبِلْبَالِهِ يَتَنَعَّمُ ، وَلَوْ عَرَفَ مَا فِي جَوْفِهِ مِنْ اللَّهِيبِ النَّاشِئِ عَنْ فِرَاقِ الْـــإِلْفِ الْحَبِيـــبِ وَالْمَكَانِ الرَّحِيبِ لَكَانَ إِلَى الْبُكَا وَالْوَصَبِ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى التَّنَعُّمِ وَالطَّرَبِ ، وَلَكِنْ هَانَ عَلَى الْخَلِيِّ مَا يَلْقَى الْمَلِيُّ " .

فَقُلْت لَهُ : وَمِنْ أَيْنَ عَرَفْت أَنْتَ هَذَا ؟! ؛ فَقَالَ : " قِسْته عَلَى نَفْسِي ، وَشَبَّهْت حَبْسَهُ بِحَبْـــسِي ! ، بِجَامِعِ أَنَّ كُلاًّ مِنَّا نَشَأَ فِي الْفَلاَةِ الْوَاسِعَةِ ، وَالأَقْطَارِ الشَّاسِعَةِ " .

(١) « حلية الأولياء » (٧ / ٥٨) ؛ وانظر : « سير أعلام النبلاء » للذهبي (٧ / ٢٦٦) .

فَانْظُرْ حَالَ هَذَا الأَعْرَابِيِّ مَعَ جَفَائِه وَغَبَاوَتِه ، وَعَدَمِ مُخَالَطَتِه لِذَوِي الْعُلُومِ وَقِلَّةِ دِرَايَتِه ، كَيْفَ أَدْرَكَ هَذَا الْمُدْرَكَ ، تَجِدْهُ قَدْ أَصَابَ فِي قِيَاسِه وَأَدْرَكَ ؛ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ) انتهى [1] .

نَسْأَلُ الله تعالى بِمَنِّه وَكَرَمِه أنْ يُعتِقَ رِقَابَنَا وَرِقَابَ وَالِدَيْنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ النَّارِ ، وأنْ يُعيذَنا مِنْ خِزْيِ الدُّنيَا وَعَذَابِ الآخِرَةِ ، وأن يُسْكِنَنَا الْجَنَّةَ مَع الأبْرَارِ ويَمُنَّ عَلينا بِرُؤيَةِ وَجْهِهِ الكَرِيمِ ؛ إنه جوادٌ كَرِيمٌ رَحِيمٌ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

عبد الكريم بن صالح الحميد

بُرَيْدَةُ - شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمِ / ١٤٢٨

(١) « غِذاء الألباب » للإمام السفاريني ، (١ / ٣٤٩ - ٣٥٠) .